الإهداء

إلى الذين كانوا يحلمون بالعودة إلى العراق وماتوا هناك، ودفنوا في ديار الغربة وإلى الذين ما زالت نواقيسهم تدق مُعلنة عن أفئدة ضمئة بحب العراق والصلاة من أجل العودة، أهدي هذه النفحات من سيرتهم الأدبية !!

الكاتب

تقديم

أ . د . حسين عبود الهلالي

أستاذ النقد الحديث

بين الإنسان ووطنه علاقة متينة مؤكدة، وتأثير متبادل بيَن، فالوطن ليس حيزاً جغرافياً يحوي المرء، بل هما متعاشقان متلازمان، تاريخهما واحد وصيرورتهما مشتركة، والوطن يمثل حضوراً فاعلاً في وعي الإنسان ووجدانه، ويترك في داخله ذاكرة متشحة بالعواطف والمشاعر والأحاسيس، ويتصل به اتصال الجسد بالروح .

الوطن عند الإنسان يعني الآمان والراحة والدفء والحنان والاستقرار والسعادة والذكريات الجميلة، هو المشيمة التي تربط المرء بالأرض، هو تاريخ الإنسان وكينونته وروحه .

والاغتراب هو الشعور الذي يسيطر على المرء في حال الانفصال عن الوطن أو عن الآخرين أو عن كليهما . وهو يتركز في إحساس الإنسان بعدم التكيف مع الآخر الغريب ومع النفس كذلك .

وإذا كان الباحث الكريم عبد الزهرة المياحي يحصر الاغتراب بالبعد عن الأوطان، فإننا لا نميل إلى ما نحا إليه، بل نزعم أنه يتسع فيستوعب أنواعاً أخرى كثيرة، كالغربة في داخل الوطن، وكانت عبارة التوحيدي أصدق وصف لذلك، قال : ((وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه)) (٨١/١)

وفي الفكر العربي الإسلامي، فرَق العلماء بين ثلاثة أنواع من الاغتراب: ((الاغتراب بالجسم : وهو اغتراب الإنسان عن وطنه، وهذا الاغتراب يشترك فيه الناس جميعاً، واغتراب الأفعال : وهو غربة أهل الصلاح والتقوى بين أهل الفسق والفجور، وغربة الصديَقين بين المنافقين، وغربة العلماء بين الجاهلين، واغتراب الهمة: أو الغربة الباطنية: وهي غربة العارف الصوفي صاحب المعرفة الذوقية، فهي غربة الغربة، لأنه غريب الدنيا والآخرة)) (٤/٩٢-٩٣)

وكانت هذه الأنواع قد بُنيت على ثلاث درجات من علاقات الوجود وهي الدرجة الأولى اغتراب المسلم بين الناس، والدرجة الثانية اغتراب المؤمن بين المسلمين، والدرجة الثالثة اغتراب العالم بين المؤمنين)) (٤/ ٩٢-٩٣)

وفي العصر الحديث جعل الباحثون الغربيون الغربة على أنواع:

١ – الغربة المكانية وسببها البعد عن الوطن، وتدخل فيها الغربتان اللغوية والمضمونية.

٢ – الغربة النفسية : وتعني ((انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوي وعميق من نفسه أو ذاته، وقد يكون اغتراباً عن قيم المجتمع بسبب انعدام تفاعل الفرد عاطفياً وتلك القيم)) (٣/٣١)

ويرى ديكارت أن الاغتراب النفسي يقوم على ثنائية عزلة الإنسان عن الجسم وعزلة الأنا عن العالم . (١٣/١٢٦)

٣ – الغربة الفلسفية : وهي لون من الاغتراب عن الكون والوجود، لشعور الإنسان بأنه فاقد الحرية، ما دامت الحرية سابقة للوجود . (١٠/٣٥)

وتعني ذلك الذي لا يملك ذاته (٢/٦٩ مشتقة من اللفظ اللاتيـــبني، **Alienatin** والاغتراب

وإذا كانت الغربة في اللغة هي التروح عن الوطن والاغتراب عنه، وقد اشـــتقت مـــن الغرب، والمغرب هو خلاف المشرق، وفي الحديث عن الرسول (ص) أنه أمـــر بتغريـــب الزاني سنة إذا لم يحصن، وهو نفيه عن بلده)) (١١ / ٥ / ١٤٨)

فإن لها جذوراً أسطورية ارتبطت بمعتقدات دينية قديمة، إذ أن ((الممارسات العباديـــة القديمة الخاصة بدفن الأموات تقضي بأن تكون الأماكن التي تقع في جهة غروب الشمس قبوراً للموتى لظنهم أنها بوابات تفضي إلى العالم السفلي)) (١٢ / ٧٢)

والاغتراب عن الأوطان ليس جديداً، والتعبير عنه لم يكن بدعاً، نقل الجاحظ خـــبراً جاء فيه ((قيل لبعض الأعراب : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية من لزوم الأوطان والجلوس مع الإخوان .

قيل فما الذلة ؟ قال : التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان)) (٩ / ٢/ ٤٠٧)

الغربة تقتل الإنسان وتذله إذن، وهي تضعف إرادته لأنها تفقده هويتـــه وشخصـــيته، وتبقيه متوتراً مضطرباً منفعلاً جزوعاً غير مستقر، وتشعره بالوحدة والضياع، عندما يجد نفسه بلا أهل ولا وطن ولا هوية وعندها يصبح الوطن البعيد بكل أماكنه جميلاً، حـــتى تلك الأماكن البائسة والمياه الآسنة .

بلادي وإن جارت عليه عزيزةُ وأهلي وإن شحوا عليَ كرام

والشعر خير معين للمبدع في غربته عن وطنه وعن نفسه، وأنجع وسيلة للتعبير عن ذاته وتحقيق وجوده، وأنت ترى الشاعر المغترب يقاوم الملل ووحشة التغـــرب وآلام البعـــد

وضغط الحياة والحزن والضياع والمعاناة واليأس بسيف القصيدة، ويرحل إلى عوالم تنسيه همومه وظلمة أيامه .

لقد ترك الشعراء قلوبهم وأرواحهم في الوطن، لذلك كان نسيانه مستحيلاً، والبعد عنه مشكلة وجودية، لأن ماهية الشاعر لا تتشيأ إلاَ به، ولهذا جاءت أشعارهم صادقة قوية حارة، تعبر عن حقيقة مشاعرهم تجاه الأوطان .

لقد وصلنا تراث شعري ضخم في التغرب والحنين إلى الوطن، أذكر منه رائعة مالك بن الريب (ت ٥٧ هـ) اليائية، فقد أنَ متأوهاً وهو في خراسان حين ذكر أهله **ووطنه في البصرة** :

((**ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة**
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماش الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا
مزار ولكن الغضا ليس دانيا))

وفي الشعر الأندلسي نماذج رائدة في هذا الشأن، يقول أبو بكر المخزومي وهو ينادي قرطبة على البعد، حين **تغرب عنها** :

((**أقرطبة الغراء هل لي آوبة**
إليك، وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة
وقعقع في ساحات دوحتك الرعد

لياليـــــــك أســـــــحار وأرضـــــــك روضـــــــة

وتربـــــــك في استنشـــــــاقها عنـــــــبر ورد))

(١٤ / ١ / ١٥٥)

ويصف ابن حمديس وطنه (صقلية) بالجنة بعد **إبعاده عنها** :

((وراءك يـــــــا بحـــــــر لي جنـــــــة

لبســـــت النعـــــيم بهـــــا لا الشـــــقاء))

وقال :

((فـــــإن كفـــــرت أخرجـــــت مـــــن جنـــــة

فـــــــإنيَ أحـــــــدث أخبارهـــــــا

ولـــــولا ملوحـــــة مـــــاء البكـــــا

حســـــبت دمـــــوعي أنهارهـــــا))

(٥ / ٤/، ١٨٣، وانظر ١٦، ٣٣، ٤١٦)

وفي الشعر العراقي الحديث قصائد يصعب احصاؤها، تقطر لوعة ودماً مجسدة معانـاة المغترب وحنينه إلى بلده، يقول محمد الهاشمي وهو **في مصر** :

((ســـــلام علـــــى وادي الســـــلام وأهلـــــه

كمـــا شـــربوا مـــن مـــاء دجلـــة صـــافي

إذا مـــا رأيـــت النيـــل راجعـــت عهـــدهم

فـــــذكرني عهـــــداً بدجلـــــة ماضـــــيا

فيـــــا ليـــــت لي مـــــن مـــــاء دجلـــــة جرعـــــة

تـــــبرد مـــــن نـــــار البعـــــاد فؤاديـــــا

ثـــــواء علـــــى بعـــــد الطريـــــق وترعـــــة

أقضـــــي بهـــــا في الاغتـــــراب الليالـــــي))

(٨ / ٢٥٢)

ويقول علي الشرقي :

((هـــــل المـــــرء إلاَ قطعـــــة مـــــن بـــــلاده

ومـــــا انـــــدفعت إلاَ لتشـــــعر بالجـــــدب

لكـــــا الحجـــــر المقـــــذوف يصـــــعد كارهـــــاً

لأبعـــــاده عنـــــها فـــــيترل للقـــــرب))

(٧ / ٣٩)

ويقول الجواهري:

((نـــــأت دجلـــــة عـــــني وبانـــــت ضـــــفافها

وأبعـــــد ذاك الـــــروض ذو المنبـــــت الأحـــــوى

فـــــوالله مـــــا أقـــــوى علـــــى مـــــا تهيجـــــه

لقلـــــبي مـــــن الـــــذكرى ويـــــا ليـــــتني أقـــــوى))

(٦ / ١/ ٢٨٤)

وقال الجواهري أيضاً وهو في إيران متذكراً العراق لا سيما النجف، مفضلاً القيظ الشديد في العراق على اعتدال الجو في فارس، ومفضلاً حصى العراق المحرق وشوك العراق وأدغاله، على ما في فارس من رياض **وخضرة ومياه** :

((**فمن شاقه برد النعيم بفارس**
فإني إلى حر العراقين مدال
أحب حصاها وهو جمر مؤجج
وأهوى ثراها وهو شوك وأدغال))
(٢٦٦-٢٦٥ /١/٦)

وبين الأمل بالعودة، واليأس من رؤية الوطن والأحبة يتفجر الشعر غربة وحنيناً على ألسنة الشعراء العراقيين المعاصرين، مجسدين فيه معاناتهم في ديار ما استطاعوا أن يركنوا إليها وتوقعهم إلى حضن الوطن سويعات معدودة، كان نتاجهم عميقاً، وإبداعهم سامقاً، وكان بحاجة إلى مبضع جراح ماهر، وريشة فنان رقيق، وقلم باحث متمكن، يعرف كيف يرسم دمعة المغترب، وآهة المبعد، ودقات قلب التائه في أقطار الأرض، وليس أقدر على ذلك وأمكن من الأديب والشاعر المتألق والناقد الحاذق الأستاذ عبد الزهرة لازم المياحي ، الذي بذل جهداً لا شك في أنه كبير، حينما تصدى لقراءة عشرات الدواوين والمجاميع الشعرية لشعراء اكتووا بنار الغربة، تأمل فيها، وقرأ ما بين سطورها، وانتخب منها قصائد ومقاطع تؤكد توجهه، ومن ثم قام بتحليلها والتعليق عليها بروحة علمية، ونفس صادق، يعرف ما تعنيه الغربة، بعد أن كان مهد لها بالحديث عن حياة الشاعر وبيئته وظروف تغربه، وإني لعلى يقين من أنه حقق مبتغاه وأتحف المكتبة الأدبية بسفر وكتر ثمين !!

جهد هذا الرجل، ليس سهلاً، لأنه كبير، وأظن أنه أخذ منه وقتاً طويلاً، ولقد امتاز هذا الجهد بلغة أدبية جميلة، تحمل لوعة الغربة، وألم الفراق، ومرارة التهجير، وبؤس التشرد، وويلات المطاردة، وقلق النفوس وتهميشها، واستطاعت بمجازيتها الشفيفة أن ترسم صورة موازية للصورة التي رسمها الشعراء للغريب، وهو يئن من أوجاعه السرمدية .

وعلى الرغم من أن البحث لا يكاد يلتزم منهجية أكاديمية واضحة في التبويب والترتيب والتحليل والتوثيق والإحالة على المصادر، واستعمال الهوامش واللغة العلمية التوصيلية، فهو معذور؛ لأنه ليس رسالة أو أطورحة جامعية، ولكنه أستطاع أن يقدم عملاً رصيناً ذا أهمية، ويكشف عن رؤية نافذة، بصرت بأصقاع مجهولة، وغابات مسكونة بأرواح البشر وإنسانية الإنسان .

لقد أتبع المبدع عبدالزهرة المياحي خطاباً ناضجاً مكتنزاً رسا على المداميك القارَة للاغتراب، وهو لا شك جهد جاد جديد نافع للمكتبة النقدية، فبارك الله فيه، وهيأ له السبل لإنتاج التمييز.... مع تقديري !!

أ.د. حسين عبود الهلالي

أستاذ النقد الأدبي الحديث

كلية التربية – جامعة البصرة